عندما يربّى الأبناءُ آباءَهم

إعداد

أ.د/ عبد الغنى أحمد عبود

أستاذ التربية المقارنة والإدارة التعليمية

كلية التربية - جامعة عين شمس

مجلة رعاية وتنمية الطفولة - جامعة المنصورة

العدد (٣) - المجلد (١) - ٢٠٠٥م

عندما يربّى الأبناءُ آباءَهم

==============

توطئـــــــة :

أن يربّى الصغيرُ الكبيرَ قد يبدو أمرا غريبا ، ولكننا إذا دقّقنا فيه فلن نجده كذلك أبـدا ، وإنما سنراه الواقعَ الذى يحدُث فى دُنيا الناس جميعا، منذ آدمَ عليه السّلام ، وحتى تقوم الساعة .. وهو كلام سمِعناه – أولَ ما سمعناه – من عَوامّ الناس ممَن طال بهم العمرُ فخَبِروا الحياة خِبرَة تجعل الحِكمة تتدفّق من أفواههم ، تدفقّا يُلجِئُ إليهم كُلّ مَن أراد الحِكمةَ وسعَى لها سعيَها وهو مؤمن .. أليس ذلك ما نراهُ يَحدُثُ من حولنا فى دُنيا الناس ، فنَعجَب نحن الذين أُتيحَ لهم أن يتلقّوا هذه (الحِكمة) مِمّا خُطّ فى الكُتُب أو الكرّاسات ؟

وإذا كانت مَقولة حُكَماءِ العَوَامّ تلك ، تعكس ضيقَ هؤلاء الحُكَماء من رعونة الأطفال وحَماقاتهم ، أكثرَ مِمّا تعكس الواقع .. فإنّ الذى لا شكّ فيه أنها مَقولة تعكسُ نصفَ الحقيقة فقط ، وأنّها لا تعبّر عن الحقيقة كلّها ، إذ الحقيقةُ أن الأبناءَ يربّون آباءهم ، ولكن بنفس القدر الذى يربّى به الآبـاءُ هؤلاء الأبنـاء .. بلْ إنّ الأصلَ هو أنّ الآباءَ هم الذين يربّون الأبناء ، ولكن الآباءَ يُحِسّون – وهم يقومون بذلك – أنهم تتمّ تربيتُهم كذلك ، ولكن بطريقة عارضة ، وعَفويّة ، وغيرَ مقصودة .. كما نراه يحدُث فى تربيةَ الآباء لأبنائهم .

معنى التربيـة :

بعيدا عن المَتاهات الأكاديمية ، التى تضرّ – فى بعض الأحيان – أكثرَ مِمّا تنفَع وخاصّةً فى ثقافتنا البحثية فى مجال التربية ، حيث نهتمّ (بحشد) الأفكار والرؤى والتصوّرات حشدا يفتقد المنطقَ أحيانا ، مِن أجلِ هذا الحشدِ ذاتِه ، أكثرَ مِمّا هو من أجل تجلية الفكرة المعروضة ، والانتصار لرؤية معيّنة فيها .. بعيدا عن هذه

المتاهات الأكاديميّة التربوية نقول إن التربية ليست شيئا أكثر من تلك العملية البسيطة جدّا ، التى يتدخّل بهـا الإنسانُ – أىّ إنسان – فى حركة نمُوّ كائن آخَر، إنسانا كان أو حيوانا أو نباتا ، ممّا من شأنه أن يتغيّر ، سواء كان تغيّرُه بالزيادة أو بالنقصان ، وسواء كان تدخّلُه تدخّلا مقصودا أو تدخّلا غيرَ مقصود ، بهدَف توجيه هذا النموّ وجهة بعينها ، يُريدها هذا الإنسانُ إن كان يعرِف ما يَفعلُـه ، أو تَنتُـج عن هـذا التدخّل بالضـرورة ، دون أن يعـىَ هو ذلك .. فكثيـر من الآباء – كما نعرِف – يُفسِدون أبناءهم إفسادا ، عندما يدلّلون هؤلاء الأبناء تدليلا زائدا عن الحدّ ، دون أن يقصدوا إلى ذلك بطبيعة الحال .. مَثَلُهم كمَثَل الكافرين الذين وصفهم القرآنُ الكريمُ – فى(سورة الكهف) – بالأخسَرين أعمالا ، و بأنهم ضلّ سعيُهم فى الحياة الدنيا ، فكان تعبير القرآنِ الكريمِ عنهم هو التعبير الأوضح ، فى موقِف يبدو من السياق أنه موقف تعليميّ ، يستعرض فيه مَوقِفَ الكافرين فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، فى مواجهة مَوقِف المؤمنين ، حيث يقول سبحانه ثَمّة :

– " قُل هل نُنبّئـكم بالأخسَريـن أعمالا ؟الذين ضلّ سعيُـهُم فى الحَياةِ الدنيا ، وهم يَحسَبون أنهم يُحسِنون صُنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربّهِم ولقائه فحبِطت أعمالُهم فلا نُقيمُ لهم يومَ القيامةِ وزنا . ذلكَ جَزاؤهم جَهَنّمُ بما كفروا واتّخَذوا آياتى ورُسُلى هُزُوا . إنّ الذين آمَنوا وعمِلوا الصالحاتِ كانت لهم جَنّاتُ الفِردوس نُزُلا " (الآيات ١٠٣ – ١٠٧) .

إن القضيّةَ – فى التربية – ليست قضيةَ قصد وعَدمَ قصد ، وإنما هى قضيّة (فِعل تربوىّ) يحدُث ، إذا صحّ التعبير ، ومن أجل ذلك كان حِرصُ النظُم – فى البلاد المتقدّمة – على ألا يصل إلى الناشئة – من هذا الفِعل التربوىّ – إلا ما يترُك فى نفوسهم أثرا طيّبا مرغوبا فيه ، سواء فى المدرسة وفى النادى وفى دور العبادة وفى الشارع جميعا ، على اختلاف الرؤى والمذاهب والتوجّهات ، السياسية والأيديولوجيّة جميعا .. وهذا على النقيض ممّا نراه يجرى على ساحة البلاد المتخلّفة ، التى يسمّونها (بالنامية) ، حتى لا يخدِشوا حَياء نُظُمِها ، إن كان لا يزال لدى هذه النظُم حَياء ، وخاصّة بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م

وما تلاه من أحداث ، وفى داخل البلاد العرُبية والإسلامية على وجه التحديد ، حيث صار التدخّلُ فى الشئون الداخلية لهذه البلاد صريحا ومكشوفا ومُعلَنا عنه كذلك ، بعد أن كان هذا التدخّل – قبل هذه الأحداث – يتمّ .. ولكنْ فى الخَفاء .

ولأن القَضيّة هى قَضيّة (فِعل تربوى)، كان حِرصُ الإسلام على ألا يَظهَر المُسلمُ أمام الناس إلا جميلا ، وعلى أن يستمتع ويتزيّن ويتجمّل قدرَ الإمكان ، دون إسراف ولا مَخيلة ، معتبرا ذلك شُكرا لِلّه سبحانه على ما أنعَمَ به عليه ، على نحو ما نقرأ – مثَلا – فى (سورة الأعراف) :

– " يا بَنى آدَمَ خُذوا زينَتَكم عندَ كُلّ مسجِد وكُلوا واشرَبوا ولا تُسرِفوا ، إنه لا يُحبّ المُسرِفين . قُلْ مَنْ حرّمَ زينةَ اللهِ التى أخـــرَجَ لِعبادِه والطيّباتِ من الرزق ؟ قُلْ هى لِلّذين آمَنوا فـى الحَـياة الدنيـا خالصـة يومَ القيامة ، كذلكَ نفصّلُ الآياتِ لِقوم يَعلَمون . قُلْ إنّما حرّمَ ربّى الفَواحِـشَ ما ظَهَـرَ منها وما بَطَـن ، والإثـمَ والبغـىَ بغيـر الحـقّ .. الآيات "
(الآيات ٣١ – ٣٣) .

ولذلك كان (الفِعلُ التربوىّ) الأفضلُ – فى الإسلام – بلا مُنازِع – هو الدعوةُ إلى الله وعملُ الصالحات ، والدفعُ بالتى هى أحسَن ، على حدّ التعبير القُرآنىّ المُحكَم فى مِثل قول الله سبحانه فى (سورة فُصّلت) :

– " ومَـنْ أحسَـنُ قـولا ممّـــن دعـا إلى الله وعَمِلَ صالحا وقالَ إنّنى من المُسلمين . ولا تَستَوِى الحَسَنَةُ ولا السيّئةُ، ادفَعْ بالتى هى أحسَنُ فإذا الّذى بينَكَ وبينه عَداوة كأنّهُ ولِىّ حميم . وما يُلَقّاها إلا الذين صبروا ، وما يُلقّاها إلا ذو حَظّ عظيم " (الآيات ٣٣ – ٣٥) .

إن مِثلَ هذا (الفِعـل التربوىّ) مؤدّاه أنّ الغايةَ المُثلـى للإنسان هى الدعـوة " إلى توحيـد الله وطاعته ، بقوله وفِعله وحاله ، وفِعل الصالحات ، وجعَلَ الإسلامَ

دينه ومَذهبَه .. " ، على حدّ تعبير محمد عليّ الصابونيّ فى (صفوة التفاسير) (ص ١٢٣) ، عند تفسيره للآيات .

وإذا كانت التربية الإسلامية تتّخذ من عمل الصالحات غاية لها ، فإن التربية اليهودية أو التربية المسيحية تتخذ كلّ منهما لها غاية أخرى، توجّه(الفعلَ التربويّ) فى المجتمع المؤمن بهما، شأنُهما فى ذلك شأنُ أيّة تربية فى العالَم ، يتّخذ لنفسه معتَقَدا يوجّه حركة الحياة فيه .

الكبارُ يربّون الصغار :

منطقيّ أن يكون (الفعلُ التربويّ) هو فعل الكبار ، بوصفهم هم القادرين على هذا الفعل ، والراغبين فيه بحُبّ كذلك .. عكس الصغار ، الذين يأتون إلى الحياة قطعةً من اللحم عجماء ، طَرِيّة كالعجين ، لا تدرى من أمر نفسها ولا من أمر الحياة من حولها شيئا .. وأن يكون (فعلُ) الكبار هذا موجّها نحو الصغار منذ اللحظة الأُولى التى يغادرون فيها رحمَ الأُمّ ، بعد تسعة أشهُر – عادة – من سُكناهم فيه .. بل وقبل هذه اللحظة بأشهُر ، حيث تبدأ عناية الآباء والمُحيطين بهم بهؤلاء الأطفال – عادة – منذ اللحظة الأُولى التى يُحسّ فيها هؤلاء الآباء ببدء الحمل ، بما له – عند الأمّ خاصّة – من أمارات .. فيتهيّأ الجميعُ لاستقبال هذا القادم الجديد ، مهما كان عددُ مَن سبقوه إلى الحياة عبرَ هذا الرحم ، فهى فِطرةُ الله " التى فَطَرَ الناسَ عليها ، لا تبديلَ لخلق الله " ، على حدّ التعبير القُرآنيّ المُحكَم فى (سورة الروم)(الآية ٣٠) ، وهى فِطرة فطر اللهُ سبحانه عليها سائرَ مخلوقاته ، من الحيوانات والطيور كذلك ، لتستمرّ الحياة .

وتبدأ تربية الكبار للصغار تلك بتوفير الطعام والشراب والمأوَى الآمن لهم ، والدفاع عنهم إذا لزم الأمر بطبيعة الحال ، حتى إذا اشتدّ عودُ هؤلاء الصغار ، وصاروا قادرين على الحركة ، وعلى مغادرة (حُضن) الأمّ ، اتّخذت عملية التربية تلك وجهة أُخرى ، هى إكساب الصغير (مَهارات) التفاعُل النشِط مع عناصر مُحيطه ، تفاعُلا يَضمَن له السلامة ، مثلَما يقوده إلى الاعتماد على نفسه ،

فى سائر شئون حياته ، لتتّخذَ تربية الطفل الإنسانى لها مَسارا غير ذلك المَسار الذى تتّخذه تربيةُ صغير الحيوان أو صغير الطيور .. بل إن تربية الطفل الإنسانىّ – بعد هذه المغادرة لحُضن الأمّ – تختلف من زمان إلى زمان ، ومن مكان إلى مكان ، ومن ثقافة إلى ثقافة ، لا لشىء إلا لأن الله كرّم آدمَ وبَنيـــه ، بذلك (الاستخلاف) الذى كرّم الإنسان به يومَ خلقَه وقال لملائكته " إنّى جاعل فى الأرض خليفة .. " (سورة البقَرة : الآية ٣٠) ، فقد خلقه سبحانه وزوّده بملَكات الاستخلاف تلك ، وفى مقدّمتها العقل ، الذى يتمكّن – به – من التفريق بين الخير والشرّ ، وبين ما ينفعُه وما يضرّه ، مثلما يتمكّن به من استغلال الخيرات التى أودعها الله فى الأرض وفى السماء .. ولذلك تبدأ تربية الإنسان صغيرا بإقامة علاقة (مودّة) و(مصالحة) بين الطفل وعناصر البيئة المُحيطة به .. وهى بيئة تختلف – كما هو معروف – باختلاف الزمان والمكان ، ممّا يجعَلُ قضيّة الاستخلاف تلك تنحو مَنَاحىَ عدّة ، مثلما تنحو تربية الإنسان .. عكس تربية الحيوان والطير ، التى تنحو – عادة – مَنحَى واحدا ، لا تتجاوزه .

بل إن أوضحَ خصوصيّات الإنسان – فى تربيته – هى أنه ليس الأطفال متساوين فيما وهبهم الله إيّاه من مَواهب ومَلَكات ، فيكاد كلّ إنسان – وكلّ طفل بالتالى – أن يكون متفرّدا ، على حدّ تعبير ألكسيس كارِل ، فى رائعتـــه (الإنسان ، ذلك المجهول) ، حيث يعتبـر نُظُمَ التعليم الحديثة (كارثة) على الإنسانية ، وتدميرا لأجمل ما فيها ، وهو تفرّد الإنسان ذاك ، فهى – عنده – تقوم على حشد الأطفال تحت سقف واحد ، لتقدّم لهم خدمات تعليمية واحدة ، باسم (المساواة) ، فتكون النتيجة أن تقـوم (بتدمير) أجمل ما فى كلّ منهم ، وهو مَلَكاته ومَواهبُه التى اختصّه الله بها دون غيره من بنى آدمَ .. ولكنها الحضارة الغربية ، التى لا ترى فى الإنسان إلا الجانب الحيَوانىّ منه دون سواه ، فتُفسد فى هذا الإنسان أكثرَ ممّا تُصلح ، على نحو ما نقرأ فى أحداث القرن العشرين ، الذى اشتعلت – فى النصف الأوّل منه – حربان عالَميّتان ، لا يفصل بينهما سوَى رُبع قرن من الزمان تقريبا .. بل وعلى نحو ما نقرأ فى زمان القُطب الواحد ، الذى

نعيش مُكتوين بناره ، منذ بدايات النظام العالميّ الجديد ، والذى كشّر للعالَم عن أنيابه ، بكُلّ تبجّح وتوقّح ، مع مطالع الألفية الثالثة ، التى جعلت لها التربية معنى يختلف عن المعنى الذى نراه للتربية فى غير البلاد التى تَشَكّلَ هذا النظام العالَميّ الجديدُ فى أحضانها .

تبدأ تربيةُ الكبار للصغار فى المنزل بطبيعة الحال ، حيث يحاول كُلّ من الأب والأمّ أن يترُك له بصمة على نفس صغيره ، ليخرُج – بها – إلى الحياة ، فى الشارع وفى المدرسة وفى سائر أنحاء المجتمع ، التى يتنقّل هذا الصغير بينها ، لتتفاعل مع غيرها من البصمات التى تنطبع على نفسه فى حركته تلك خارج البيت ، وتشكّل – على نحو أو آخَرَ – شخصيةَ الفردِ الإنسانيّ .. وتستمرّ هذه التربية مدى الحياة ، أو (من المهد إلى اللحد) ، على حدّ قول الرسول صلّى اللهُ عليه وسلّم ، فلا تتوقّف عند مرحلة عُمريّة بعينها .

ويفرّق المُهتمّون بتربية بنى آدمَ – هنا – بين تربية مقصودة – فى المدرسة على سبيل المثال – يكون فيها الكبار هم المدرّسون ، الذين يتخيّرهم المجتمع على نحوٍ أو آخَر ، ليحلّوا محلّ الآباء فى تربية هؤلاء الأبناء ، عندما يصلون إلى سنّ بعينها ، يستطيعون – فيها – مغادرة البيت ، وتلقّى العلم المنظّم ، على نحو أو آخَر .. وتربية غير مقصودة ، حيث يتعرّض الطفل – وهو يتحرّك فى الحياة – لغيره من بنى آدم ، كبارهم وصغارهم ، بطريقة غير نظامية ، ويتفاعل معهم على نحو أو آخر ، مثلما يتعرّض لمواقف ينفعل بها ، معهم أو مع غيرهم من عناصر الطبيعة المختلفة ، تترك بصمتها على نفسه ، بشكل قد يكون أوضح ممّا تتركه التربية النظامية .

كما يفرّقون – فى هذه التربية المقصودة – بين تربية مدرسية تقوم على الحرية وتهدف إلى تنمية شخصية الطفل المتعلّم ، واكتشاف ملَكاته ومواهبه واستغلالها لتنمية شخصيته ، لصالحه ولصالح المجتمع جميعا .. وتربية مدرسية

لا تنظر إلى كيان هذا الطفل المتعلّم إلا من خلال كونه عضوا فى جماعة ، عليه أن يَنشأ فى إطارها ، وتتولّى هى تنشئته فى هذا الإطار .

ويفرّقون – كذلك – بين تربية حديثة ، نجد النظام التعليمىّ – فيها – يقوم على أحدث ما توصّلت إليه التربية من رُؤَى وأفكار وتجارب ، فى مَجال التربية ذاك .. ويوفّر للمؤسّسات التعليمية كل ما تحتاج إليه من مَبانى حديثة مُجهّزة تجهيزا جيّدا للقيام بوظائفها ، ومُزوّدة بالمكتبات والمعامل المُلائمة ، التى تتطلبـها العملية التعليمية فى المدرسة .. إضافة إلى الملاعب الملائمة وقاعات النشـاط .. والمعلّمين القادرين على تفعيل ذلك فى العملية التعليمية .. والإداريين فى كافّة مَواقع العَمَل .. وغيرهم ، ممّن لا يستقيم العَمَل – فى هذه المؤسّسة الضخمة – بدونها .. يفرّقون بين تربية حديثة هذا شأنُها ، نراها – عادة – فى البلاد المتقدّمة المُعاصرة ، وبين تربية هى أقرب إلى البدائية ، نراها واسعة الانتشار فى البلاد المتخلّفة والفقيرة – وما أكثرَها فى عالَمنا المُعاصر – لا تتعدّى عناصـرُها ومكوّناتها مكانا يأوى إلى المتعلّمون ومعلّموهـم ، مهشّم الأبواب والشبابيك عادة ، تنقصه المرافق الأساسية ، بما فى ذلك دورات المياه ، التى لا يُمكن الاستغناءُ عنها فى تجمّع للأطفال خاصّة .

أما عن دخول التكنولوجيا ، بما فى ذلك المُعدّات التكنولوجية المعقّدة ، إلى برامج العمل فى المدرسة الحديثة ، فهو أمر قد صار شائعا فى مدرسة اليوم ، وهى مُعدّات مكلّفة من الناحية المالية ، إضافة إلى كون أجهزتها ومُعدّاتها تتطلّب صيانة مستمرّة ، مثلَما تتطلّب التغيّر المستمرّ لها .. حيث يصبح كل جهاز من أجهزتها قديما بمجرّد ظهور الجيل التالى من هذا الجهاز .

إن نُظُـمَ تعليم الكبار للصغار – فى عالَمنا المُعاصر – نُظُم معقّدة تعقيدا يتزايد يوما بعد يوم ، إضافة إلى كونها مكلّفة من الناحية الماليّة بشكل يتزايد باستمرار ، ممّا يجعَل الهُوّة بين هذه النظُم فى البلاد الغنية المتقدّمة ونظيراتها فى البلاد المتخلّفة والفقيرة – أو الأقل تقدّما وغِنى على الأقلّ – تتّسع يوما بعد يوم .

والصغارُ يربّون الكبارَ كذلك :

يُخطئ مَن يظنّ أن التربية عمليّة أُحادية الجانب ، يقوم فيها مجتمعُ الكبار بتشكيل أجيال الصغار على النحو الذى يريده هؤلاء الكبار ، آباء كانوا أو معلّمين ، أو غير هؤلاء وهؤلاء .. إذ الواقعُ أن الصغارَ يَصعُبُ اعتبارُهم (آنية فارغة) ، يقوم الكبار بملئها ، لا لشىء إلا لأنهم ليسوا كذلك أبدا . إن لكل صغير من هؤلاء الصغار كينونته الخاصّة به وحده ، وله شخصيّته المتميّزة ، مهما كان عُمرُه الزمنىّ .. ولشخصيّته هذه (مفتاحُها) الخاصّ بها ، والذى لو تعامَلَ المربّى الكبيرُ مع الطفل بدونه ، فإنه لا بُدّ أن يُصاب بالفشل .. وليست بَرامجُ إعداد المعلّم – فى مَعاهد إعداد المعلّمين – فى حقيقة أمرها – شيئا أكثر من تزويد معلّم المستقبل بعَدَد من (المفاتيح) التى يقتحم بها مَجاهلَ عملية التربية تلك ، والتى يُعتَبَرُ مفتاح شخصية المتعلّم ذاته أكثرَها أهميّة وخطورة .

إن هذا هو الفرقُ الأكثرُ أهميّة بين الصغار الذين يتعلّمون ، وبين الكبار الذين يعلّمونهم : أنّ الكبارَ ، وخاصّة المعلّمين منهم ، يَعُونَ تماما ما يَفعَلون ، وأنّ لديهم خُطّة عمل يسيرون وَفقَها ، وأنّ لهذه الخطّة أهدافا يسعون إلى تحقيقها .. وهكذا .. بينما الصغارُ لا يعرفون عمّا يجرى معهم شيئا ، فليس يعنيهم من أمر تربيتهم تلك شىء أكثر من أن يلهوا ويلعبوا ويستمتعوا بلحظتهم التى يعيشون فيها ، ولذلك كانت التربيةُ من خلال اللعب والنشاط ، المدخلَ الأرحبَ لانطلاقة التربية الحديثة فى فترة ما بين الحربين العالَميتين ، الأولى والثانية ، وخاصّة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان بطلها – كما هو معروف – هو جون ديوى ، الذى كان له تأثيره الواضح ، ليس فى الولايات المتحدة وحدَها ، ولكن فى العالَم أجمع ، بما فى ذلك العالَم الشيوعىّ – ألدّ أعداء الولايات المتحدة وقتئذ ، فقد كانت تأثيراتُ فكره على مُهندسى التربية السوفيتيّة – فى عهد ستالين على سبيل المثال – واضحة غاية الوضوح .

ورغمَ أن الكبارَ يتصرّفون مع الصغار تصرّفات يَعُونَ – مقدّما – تأثيراتها فى هؤلاء الصغار ، سواء على المدَى القريب وعلى المدَى البعيد ، على الأقلّ إذا كان هؤلاء الكبارُ من المعلّمين المحترفين ، الذين تمّ إعدادهم أكاديميًا لتولّى هذا العمل ، وتمّ تزويدهم بالرخصة ، التى لا يتمّ السماح لأحد بمزاولة مِهنة التدريس بدونها فى بلاد الغرب المتقدّمة .. رغم ذلك ، فإن هؤلاء المعلّمين يظلّ نجاحُهم فى تأدية مَهامّهم متوقفا على أمور كثيرة ، منها ما يتعلّق بالمتعلّم ذاتِه ، ومنها ما يتعلق بالبيئة المدرسية والصفّيّة ، ومنها ما يتعلّق بالبيئة المُحيطة بالمدرسة ، ومنها ما يتعلّق بالنظام التعليمى كله ، ومنها ما يتعلّق بالمجتمع الكبير الذى يتبنّى هذا النظامَ التعليميّ ويرعاه .. بل إن منها – فى زماننا هذا – ما يتعلّق بالنظام الدولىّ الأكبر ، الذى صار أكثرَ تأثيرا – فى تربية الصغار تلك – من سائر النظُم التى ذكرناها ، فى بعض الحالات بطبيعة الحال .. مما يجعل هؤلاء المعلّمين المحترفين المؤهّلين تأهيلا جيّدا يُصابون بالإجهاد والإحباط فى حالات كثيرة .

وإذا كان هذا هو شأن المعلّمين المحترفين فى عالَمِ اليوم ، فكيف يكون الأمر بالنسبة للكبار من غيرهم ، ممّن لم ينتسبوا إلى عالَم المربّين إلا لمجرّد أنهم تزوّجوا ليقضوا حاجة بيولوجية خالصة ، فإذا بهم يجدون أنفُسَهم – بعدَها – مُضطرّين – بحُكم القانون – إلى أن يحملوا هَمّ قضاء هذه الحاجة وتبِعاتِها .. ولذلك انتشر – فى بلاد الرفــاه المادّىّ – ما يسمّى (بالزواج المثلىّ) ، لقضاء هذه الحاجة البيولوجية ، دون تحمّل عبء ما ينتج عنها .. مما يهدّد الجنس الأبيض – فى أوربا والولايات المتحدة خاصّة ، حيث تنتشر هذه الثقافة الزواجية وتتوسّع– بالاقتراض ؟

وتبدأ تربيةُ الصغار لوالديهم فى وقت مبكّر ، فما أن يتحسّس الأبَوان بالقادم الجديد يتحرّك فى أحشاء الأمّ ، خاصّة إذا كان هذا القادم هو الطفل الأول .. حتى تجدَ طباعَ الوالدين تختلف عمّا ألفَه الناسُ عنهما ، فتبدأ الأمّ فى التحرّك الحذِر بعد أن كانت لا تُبالى بحركتها ، وتبدأ فى حُبّ الأطفــال الصغار بعدَ أن كانت تضيق بهم ذَرعا ، وتبدأ فى التعامُل مع الأقارب والجيران بشكل أرقى ، لم تتعوّد عليه معهم ، ولم يتعوّدوا عليه معها .. ويبدأ الأب فى (حمل الهمّ) ، مهما كان صغيرَ السنّ ،

فتتسلّلُ (الشيخوخةُ) إلى حركاته وسكناته ، ويبدو – بمرور الوقت – أقربَ إلى الحُكَماء فى تصرّفاته، منه إلى أقرانه فى السنّ ، كما يبدأ فى تغيير سياساته العامّة ، فنراه يبدأ فى الاعتدال فى الإنفاق ، إن لم يسلُك سبيل البُخل ، ويبدأ فى (غربلة) أصدقائه ، ليُبقِيَ على أكثرهم حِكمة واتّزانا .. وهكذا .. فهل كانت الرسالةُ التى وصلت إلى الأب والأمّ رسالة بعثت بها تلك النطفة التافهة الحقيرة التى أُودِعت فى رحِم الأم إليهم ، أم أنها رسالة سمِعاها ممّن سبقوهم على طريق الإنجاب ، وخاصّة من والديهما وأقاربهما والجيران .. أم أنها رسالة توَهّماها – بمجرّد الحمل– تأتيهما من هؤلاء جميعا ؟

وإذا كان هذا هو ما يغيّره الأبناء فى آبائهم وكلّ منهم لا يعدو أن يكون (مشروع طفل) فى ظُلُمات رحِم أُمّه ، تصعُب رؤيته بالعين المجرّدة ، فكيف يكون أمرُ هذا التغيير بعدَ أن يقذف به هذا الرحِمُ إلى أُفُقِ الحياة الأوسع ، ليتحرّك فيها حركة محدودة فى البدايات ، سرعانَ ما تزيد وتيرتُها ، لتنشرَ الفرحةَ والبهجةَ فى نفوس الجميع ، ولنجد الأب الوقور ، والجدّ الأكثر وقارا ، وقد تخلّى كل منهم عن وَقاره ، ليصير أكثرَ طفولة من الطفل – الذى غيّر فى حياة المُحيطين به ما غيّر– وليصير للحياة معنى لم يألفوه جميعا ، قبل قدوم هذا الوافد الجديد على حياتهم ، ليقلب هذه الحياةَ كلّها رأسا على عقب .

التربية عبر الحدود :

فى عصر السماوات المفتوحة الذى فُرِضَ علينا أن نعيش فيه ، مُستظلّين بها ، رضِينا أم كَرِهنا .. لم يعُدْ مَنطقيّا ولا مقبولا أن نعزُوَ التأثيراتِ التربويةَ إلى جهة واحدة محدّدة بعينِها ، بيتا كانت هذه الجهة أو مدرسة أو ناديا أو وسيلة إعلام أو شبكة اتصالات دولية . لقد أصبحت السيطرة على المؤثّرات التربوية ، فى الصغار وفى الكبار جميعا ، أمرا يصعُب تصوّره فى هذا الزمان ، ممّا حصر المؤسّسة التعليمية فى رُكن ضيّق ، يصعُبُ عليها أن تتحرّك فيه ، بوصف هذه المؤسّسة تعمل فى إطار خُطّة عَمَل ، تقيّدها السلطات التعليمية بها ، أو تضعها هى

بنفسها لنفسها على أحسن الفروض ، فهذا هو شأن المؤسّسات حيثما كانت ، تعليمية وغير تعليمية : أن تَسير وفقَ تخطيط مُسبَق ، يكون ميثاقَ شَرَف تتّفق عليه كُلّ الأطراف ذات الصلة بالمؤسّسة ، وخاصّة إذا كانت هذه المؤسّسة مؤسّسة تعليمية ، لا يقتصر الاهتمام بما يجرى بين جنباتها على العاملين فيها فقط ، وإنما يتعدّاهم إلى الأطفال المتعلّمين وذَويهم ، إضافة إلى المجتمع المُحيط بالمدرسة ، والمجتمع الكبير الذى تنتمى إليه المدرسة والمجتمع المحيط جميعا .

إن قضيّة التربية هى – اليوم – قضية الوطن والمُواطن جميعا ، بعد أن صارت – بالفعل – قَضيّة أمن قوميّ ، لكل مجتمع معاصر .. ممّا جعل الفَضائيات عابرة القارّات لا تمثّل خَطَرا بالنسبة للبلاد المتخلّفة وحدَها ، وإنما هى تمثّل خطرا أكبر بالنسبة للبلاد المتقدّمـــة ذاتها بسبَب مساحة الحرّيّة التى توفّرها النظُم فى هذه البلاد المتقدّمة لمُواطنيها ، كبارِهم وصغارِهم ، بما فى ذلك حرّيّتهم فى الفساد والإفساد جميعا .

ولا يستطيع التصدّى للفَضائيات – فى حقيقة الأمر– سوى النظام التعليميّ التقليديّ ، الذى يبدو أنه كُتِبَ على البشريّة أن تظلّ أسيرة له حتى قيام الساعة ، كما قُدّر له أن يتصدّى للمُشكلات الكثيرة التى اعترضت طريقَه منذ وُجِد ، بعبقرية واضحة .. ممّا يعنى أنه هو الذى يقدر – وحدَه – على التصدّى لمشكلة الفَضائيّات تلك ، إذا ما توفّرت للقائمين عليه فُرَصُ التفكير والحركة والفعل ، وتمّت إزاحة العقبات التى يتفنّنُ الكثيرون فى وضعها على طريقه ، وخاصّة بعد أن صارت هذه الفضائيات (مَحميّات) لرجال أعمال لهم وزنُهم ، على المستويين المحلّيّ والدوليّ ، ولهم هيمنتُهم الكاملة على صانعى القرار فى كثير من دول عالَمنا المعاصر .. ونذكّر – هنا – بأن النظُمَ التعليمية القديمة التى أنجزت حضارات لازالت شعوبُها تباهى بها ولازالت كثير من شعوبها (تتعيّش) عليها فى حياتها المعاصرة ، كانت (هذه النظم) يستبدّ بها الكهَنَةُ دونَ غيرهم ، وبأن هؤلاء الكَهَنَةَ كانوا يشاطرون الملوكَ سلطانَهم وأنهم كانوا يتفوّقون عليهم فى هذا السلطان فى أحوال كثيرة ، فى كثير من هذه المجتمعات .

إنّ هؤلاء (الكَهَنَةَ الجُدُد) هم الأمل فى استثمار هذه الفضائيات ، واستثمار إمكانيّاتها غير المحدودة ، فى (إعادة الروح) إلى التربية ، التى بدأت تضلّ الطريقَ إلى المستقبل الآمنِ بسببِها ، والتى بـدأت نُظُمُها تترنّـح تحت وطأتها .. وكلّ الذى يمكِن أن يقدِروا على فِعـلِه هو أن يُعيـدوا (التماسُك) إلى (النظام التعليمىّ) ، الذى تسرّب إلى عناصره الضعفُ والوهَن ، فأخذ يترنّح ، بسببِ عجزه عن مسايرة خُطَى العصر من حوله ، واستثمار إمكانيّات التكنولوجيا الحديثة والمتقدّمة فيما تقدّمه من برامج ، فضلا عن منافستها .

إن ذلك هو التحدّى الأكبر أمامَ النظُمِ التعليمية المعاصرة ، وعليها أن تُواجِهَه ، قبل أن يجرِفَها طوفانُ الفضائيّات تلك .. وذلك بأن تكون البرامجُ التعليميةُ التى تقدّمها جاذبة (لزبائنها) ، أو للمستفيدين منها ، جاذبية تُمكّن هذه النظُمَ من إعادتهم إلى (حُضنها)، حتى يُحِسّوا بدِفء هذا الحُضن .

ولا تعنِى جاذبيّة البرامج التعليمية للمستفيدين منها ، وهم الطلاب المتعلّمون ، (هبوط) هذه البرامج إلى مستوى الفقرات التى تقدّم فى بعض هذه الفَضائيّات ، وإنّما هو يعنِى (التفنّنَ) فى عرضها ، وحُسنَ إخراجها ، بحيث (تجذب) المتعلّمين إليها ، وتجعلُهُم يرتبطون بها ، ويُحِسّون بأنها جُزء منهم ، هو الأقدر على إشباع حاجاتهم العقلية .. ولقد خَطَت قصصُ الأطفال – مؤخّرا – خطوات واسعة فى هذا المَجال ، عند بعض دور النشر المحترَمة فى البلاد العرَبية ، فبعد أن كانت القصّة التى تُقدّم للصغير مجرّدَ (حَدّوتة) مكتوبة ، صار هناك اهتمام غير محدود بجَوانب تبدو شكليّة ، ولكنْ ثبتَ أنها فاعلة فى جذب الأطفال إليها ، وجعلهم يحرِصون على قراءتها وتملّكها والاعتزاز بها .. بل إنها صارت جاذبة للآباء والأمهات جاذبيّتها لأبنائهم إن لم تَزد .. وأزعم أن النظُمَ التعليمية تستطيع – لو أرادت ، ووجد كلّ منها ما يراه ضروريا لحمايته ودعمه من النظام المجتمعى – أن تَفعَلَ الكثير ، تماما كما فعلت فى ظِلّ الحضارات السابقة ، قبل حضارة القرن العشرين ، التى تولّت (الدولةُ) فيها كلّ شىء ، فكان ما نعيشه فى ظلالها من تخريب وتدمير ، لا ينجو منهما حتى مَن يقومون بهذا التدمير وذلك التخريب .

وعندما تنجَحُ النظُم التعليمية فى (جذب) (زبائنها)التقليديّين هؤلاء من أحضان الفضائيات الهازلة ، فإنها ستكون قد نجحت كذلك فى جذب ذويهم والمُحيطين بهم والمتفاعلين معهم ، لنجد هذه الفضائيات تتلمّس سبيلا أرقى (لجذب الزبائن) ، هو سبيل الجدّ ، الذى تدلّ التجربة على أنه يكون – فى أحيان كثيرة – إذا أُحسنَ التعاملُ معه – أكثر إمتاعا ، إضافة إلى نفعه الذى لا يشكّ فيه أحَد بطبيعة الحال .

قد يبدو الهدَفُ بعيدَ المنَال ، ولكنه لا يمكن أن يكون مستحيلا .. فقد حدث شىء قريب منه مع التعليم الألمانىّ فى أثناء الغزو الفرنسىّ لألمانيا فى عهد نابليون(فى مَطالِع القرن التاسع عشر) ، فأعادَ رجل واحد – مثل الفيلسوف الألمانىّ فيخت – الشبابَ إلى هذا النظام التعليمىّ ، بكلمات صادقة وجّهها إلى الأمة الألمانيّة – من خلال أكاديميّة العلوم فى برلين – فى شتاء سنة ١٨٠٧/١٨٠٨ ، قدّم – من خلالها – مشروعا لتربية جديدة ، كما هو معروف .. وحدث شىء قريب منه فى اليابان إثرَ هزيمتها العسكرية فى الحرب العالَمية الثانية ، واحتلال الجيش الأمريكىّ لها ، والسيطرة الأمريكية على هذا التعليم ، لتخليصه من النزعة العسكرية والعُنصرية كما يقولون .. ولكن(الروح اليابانية) لم تنطفئ ، بل زادت اشتعالا ، حيث وضعت اليابانُ أقدامَها – بعد أقلّ من عقدين من الزمان – على الذى وصل بها إلى ما تعيشه اليوم من تربّع على عرش الاقتصاد العالَمىّ كما نعرف جميعا .. وحدث شىء قريب منه مع ماليزيا ، ومع النمور الآسيوية .. ومع غيرها وغيرها .

الكبار ومصادرة رُؤَى الصغار:

ليس من الإنصاف أن ننظُرَ إلى كُلّ ما يأتينا من خارج الحدود على أنه شرّ محض ، سواء أتانا هذا الآتى عبرَ الحدود من خلال الفضائيّات أو عَبْرَ غيرها ، ممّا يصطلح المؤرّخون على تسميته (مَعابِرَ الحَضارة) ، التى تعنى – عندَهم – (الوسائل) التى تنتقل الأفكار والرؤى وأساليب الحياة – من خلالها – من مكان إلى مكان ، ومن تَجمّع بشَرِىّ إلى تجمّع بَشَرِىّ آخَر ، فتتغيّر أساليبُ الحياة المادّية التى

يحياها الناس ، فى المكان الذى تنتقل إليه ، كما قد تتغيّر أساليبُ حياتهم غير المادّية كذلك ، متأثّرة بهذه الأفكار والروَى وأساليب الحياة ، فالمغلوبُ مُولَع بتقليد الغالب ، على حدّ تعبير العلامة عبد الرحمن بن خلدون ، الذى لا يقصد بالغَلَبَة الغلَبَةَ العسكرية ، وإنما يقصدُ بها الغلَبَةَ فى تلك الجوانب التى تتعلّق بحياة الناس على الأرض ، كما يمكن أن نفهَمَ من سياق كلامه ، بدليل أن الغالب عسكريا قد يتأثّر بالمغلوب ، إذا كان المغلوبُ يتفوّق عليه فيها ، كما تأثّر الرومان أوّل عهدهم بالإغريق الذين انتصروا عليهم واستعبدوهم ، وخاصّة الأثينيّين منهم ، وكما تأثر التتار بالمُسلمين ، حتى أسلموا وكانوا من حُماة الإسلام بعد ذلك .. وهكذا .

وتبدو آثارُ مثلُ هذه الأفكار والرؤى والأساليب الوافدة – فى البدايات– على الصغار من أبناء المجتمع ، فى الوقت الذى تجد فيه من الكبار مقاومة شديدة ، فقد كان الصغارُ الذين احتكّوا بأفكار الإسلام ورؤاه من الأوربيّين هم الذين تشبّعوا بأفكاره ، فكانوا (خميرة)الثورة على الكنيسة الكاثوليكية ، بما قاموا به من تمرّد على الفكر الذى يرضَخ له الكبار .. ممّا قاد إلى الإصلاح الدينى سنة ١٥١٥م ، كما نعلم جميعا .. وكان الصغارُ هم الذين بادروا إلى الإيمان بالإسلام وأيّدوه ونصروه وتمثّلوه ، واستماتوا فى الدفاع عنه ، حتى نصره الله سبحانه ، كما نعلم كذلك .. وهو موقف وقَفَهُ – ويقفه – هؤلاء الصغارُ مع كلّ فكر جديد يَظهَر ، وخاصّة إذا كان هذا الفكرُ فكرا دينيّا .

وفى عصر السماوات المفتوحة الذى نعيش فيه ، نجد مثل هذه الأفكار والرؤى والأساليب الوافدة كثيرة ، ونجد إغراءاتها لصغارنا أكثر ، وتأثيراتها عليهم –بالتالى – أكبر ، ووقوعهم تحت تأثيراتها – لذلك – أكثر احتمالا ، لا لشىء إلا لأنها لا تخاطب – فى هؤلاء الصغار المَساكين – شيئا سوَى الجَسَد ونزواته .. وهذا الجَسَد هو معظم ما يملكُه هؤلاء التعَساء المساكين للأسَف الشديد ، بحكم مرحلة النموّ التى وصلوا إليها فى مسيرة نُمُوّهم المحدودة .. ومن ثَمّ كانت خبرتُهم المحدودة بالحياة ، ممّا لا يوفّر لهم غِطاء يقيهم شرّ الانبهار بمثل هذه التأثيرات ، والإفلات من الوقوع فى قبضتها .. وهو غِطاء ينسجونه بأنفسُهم لأنفُسهم ، كُلّما

سارت بهم الحياة إلى الأمام فخبروها ، وأضافت إليهم خبراتُهم لها دروعا يَقُونَ أنفُسَهم – بها – شرّ الانبهار بما فى أيدى الآخَرين ، والغفلة – فى ذات الوقت – عَمّا وهبــهم اللهُ إيّــاه مِن مَواهب وملَكات ، وقُدرات وإمكانات ..

ومن ثم يكون مدّ الكبارِ أيديَهم إلى الصغار أمرا لا مفرّ منه لتأمين حاضرهم ومستقبلهم جميعا، لا بالطعام والشراب وغيرهما من حاجات حياتهم اليوميّة وحدَها ، ولكن بالتعامُل معهم على أنهم (كِيانات) محترمة فِعلا كذلك ، فقد مضى – إلى غير رجعة – ذلك الوقــت الذى كانوا يَقبَلون – فيه – (بتهميشهــم) فى الحياة ، كما كانوا يفعلون مِن قبل ، وذلك بسبَب وسائل الاتّصال بالآخر ، التى مكّنتهم من الوقوف على ما يفعله مَن هم فى سِنّهم فى مجتمعات العالم مِن حول مجتمعهم .. تلك الوسائل التى بلغت ذِروتَها فى هذه الأيّام ، مِن خلال الفضائيات ، ووسائل الاتصال الإلكترونية .

وبفضل هذه التكنولوجيّات الحديثة جدّا ، صِرنا – نحن الكبار – الأكثر احتياجا لأبنائنا الصغار ، ليأخُذوا بأيدينا فندخل – معهم – هذا العصر الجديد الذى اقتحموه بجُرأة يُحسَدون عليها ، وإلا صرنا نحن الذين لا نقدِرُ على أن نغرّد إلا خارج سِرب الحياة ، التى تجرِى مِن حولنا جريا يصعُــب علينا – نحن الكبــار – بخُطُواتنا المتثاقلة – اللحــاق بها ، بينما يسهُل على أبنائنا الصغار (العفاريت) – بخُطُواتهم الخفيفة والرشيقة – هذا اللحاق بها ، ليغرّدوا داخل هذا السرب .. كما صار هؤلاء الأبناء أكثرَ احتياجا إلينا مِن أىّ وقت مضَى ، لضبط إيقاع حياتِهم ، حتى لا ينسَوا أنفُسَهم ، فلا يُفيقوا إلا وقد وجدوا أنفُسَهم قد جرفهم التيّار الصاخب فصاروا أسرَى له ، وكان مفروضا أن يكونوا هم المالكين لزمامه ، والقادرين على تسخير مُعطَياته لخِدمة حياتهم وحياة المجتمع الذى نشأوا – معنا – فى ظلاله .

لم يعُدْ هناك مَفَرّ – إذَن – من تدريب صغارنا على المشاركة فى صُنع القرارات التى تَتّصِلُ بهم ، ومن تدريب أنفُسنا – معهم – على هذه المشاركة ، التى لم نجد مَن يدرّبنا عليها ، ومن ثَمّ صار علينا أن نتعلّم نحن آليّات هذه المشاركة ، إذا نحن أردنا أن نعلّمهم إياها .. ويكفينا أن نرجع إلى تراثنا فى هذا المَجال ، لنجد مثلَ قول الله سبحانه فى (سورة آل عمران) :

– " فَبِما رحمةٍ من الله لِنتَ لهم ؟ ولو كُنتَ فظًا غليظ القلب لانفَضّوا من حولك .. فاعفُ عنهم واستغفِرْ لهم وشاوِرْهم فى الأمر .. فإذا عزمتَ فتوكّلْ على الله ، إنّ اللهَ يُحِبّ المتوكّلين " (الآية ١٥٩) .

وهى آية جامعة ، تمّ توجيه الأمرِ الإلهىّ فيها للرسول صلّى اللهُ عليه وسلّم – وللأمة كُلّها من خلاله – إلى عدم الانفراد (بالأمر) – أو بالقرار – دون مَن يهمّهم أمرُ هذا القَرار .. وهو أمر نقرأ ترجمة حيّة له على أرض الواقع فى سيرته صلّى اللهُ عليه وسلّم .. فى الحرب وفى السلم .. ومع الكِبار ومع الصغار .. ومع أصحابه جميعا بلا استثناء .. وكأنما كان صلّى اللهُ عليه وسلّم – على طريقته فى التعامُل مع القرآن الكريم – يدرّب الأمة كلّها على تحويل هذه الآية إلى سلوك حىّ ، يُرَى رأىَ العين على الأرض ، وتتمّ ممارستُه ، فى كلّ تجمّع بشرىّ ينتمى إلى النظام الإسلامىّ الذى يقود مَسيرتَه وهو حىّ ، ويتمّ إعدادُ صحابتُه هؤلاء لقيادتها فى غيابه ، وخاصّة بعد انتقاله إلى ربّه ، وخاصّة بعد تلقّيه آخرَ وَحْىِ السماء إلى الأرض فى (سورة المائدة) :

– " حُرّمت عليكم المَيتةُ والدمُ ولحمُ الخنزير وما أُهِلّ لِغيرِ الله به ، والمنخنقةُ والموقوذةُ والمُتردّيةُ والنطيحةُ وما أكلَ السبُعُ إلا ما ذكّيتم ، وما ذُبِحَ على النصُبِ وأن تستقسِموا بالأزلام ، ذلكم فِسْق.. اليومَ يَئِسَ الذين كفروا من دينِكم فلا تخشَوْهُم واخشَوْن ..اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممت عليكم نِعمتى ورضِيتُ لكم الإسلامَ دينا .. فمَن اضطُرّ غيرَ مُتجانِف لإثم فإنّ اللهَ غَفور رحيم "(الآية ٣)

لقد كان احترامُ رأى الصغير فيما يتّخذُه الكبارُ بشأنه من قَرارات ، هو القاعدة التى سار عليها المسلمون طوالَ ستة قرون من الزمان تقريبا – أى طِوالَ عصرِ النبوّة والخلافة الراشدة ، وطوال عصور الازدهار الإسلامىّ .. ولم يبدأ المسلمون فى إغفال هذا الحقّ الذى استمدّه هؤلاء الصغار من الإسلام إلا يومَ بدأ الوهَنُ يتسرّب إلى القلوب ، فكان من انحطاط بلغ ذروتَه فى هذا الزمان .. وهاهم أبناؤنا الصغار (يثورون) على هذا الوهَن الذى أصاب الأمة ، فهيّا بنا نساعدهم فى هذه الثورة ، فهى ثورة لصالحنا نحن الكبار كذلك ، لعلّنا نلقَى اللهَ – نحن الكبار – وقد عُدنا إلى الخطّ الذى رسمه الإسلام لنا ، بعد أن انحرفنا عنه طويلا .. ونسأل الله أن يغفر لنا ما فرّطناه فى حقّ أنفسنا وفى حق الأمّة .

عندما يتغيّر الكبار إلى الأسوأ :

فى مسألة التربية تلك ، يَصعُبُ أن يختصر الإنسان قضيّة التربية فيما يشبه معادلة رياضيّة تبسّط قضاياها ، فتقول مثلا : معلّم + متعلّم + موقف تعليمىّ = تنمية .. إذ الواقعُ – فى دنيا الناس– أنّ ذلك يؤدّى إلى تغيّر ، ولكنه لا يكون تغيّرا فى طريق البناء والتنمية دوما ، فقد يكون تغيّرا فى طريق التدمير والهدم كذلك .. فهذا هو ما نقرؤه فى قِصَص حياة الجانحين من الأطفال والكبار على السواء ، فليست قِصّة جُناح كلّ منهم إلا قصة معادلة رياضية كالمُعادلة السابقة ، لم تؤدّ إلى تنمية ، وإنما أدّت إلى نقيضِها .

وقد يكون للصغار دور فى هذا الذى حدث ، وقد يكون للكبار دور ، إذ لا بد أن يكون هناك موقف تربوى أو تعليمىّ مرّ به الجانح مع أحد أفراد المجتمع ، أو أحَد عناصره ، لتكتمل مُكوّنات المعادلة السابقة .. ولكنْ يظلّ المكوّن الأهمّ فى هذه المعادلة هو الإنسان الذى جنح ذاتُه ، والذى لم تتمّ تنشئتُه التنشئةَ الصحيحةَ التى تؤهّله لامتصاص أمثال هذه المواقف والإفادة منها ، بدلا من الوقوع صريعا لها .

إن تدريبَ الصغار – والكبار كذلك – على تقويم أنفُسِهم فى أثناء تربيتهم مسألة بالغة الأهمّيّة فى عملية تربيتهم تلك ، وهو أمر نتغافله عادة رغم أهمّيته ،

وتكون النتيجة أن الأطفال يكبُـرون على أيدينـا وهم عاجـزون عـن أن يروا حقيقة ما يفعلونه رؤية صحيحة ، وعاجزون – بالتالى – عن أن يروا ما يفعلُه غيرُهم إلا بنفس العين القاصرة .. فيرون ما يفعلونه هو الصحيح وحدَه ، ويرون ما يفعلُه غيرُهم الخطأ كلّه ، إلا إذا كان يحقّق لهم مَصلَحة ، حتى ولو كانت مَصلَحة قريبة ووقتيّة .. وتكون النتيجة هى التخبّط الذى نراه من حولنا – فى المجتمع الذى نعيش فيه – ونشكو منه ، مع أننا لو فتّشنا فى مَسالكنا – نحن الذين نشكو – لوجدناها لا تختلف كثيرا عن مَسالك الذين نشكو منهم سُوءَ مَسالكهم .

ولأننا لم تتمّ تربيتُنا على تَقبّل الآخَر ، فإننا لا نقبَلُ نقدا يوجّه إلينا من أقراننا ، حتى ولو كان هذا النقد موضوعيّا ، ونعتبر مثلَ هذا النقد ممّن هم فى سنّ أبنائنا (قلّة أدب) وسوء تربية، فكيف يُمكن أن نَرَى مثلَ هذا النقد من هؤلاء الأبناء أنفُسهم ؟

على أن ذلك لا يعنى أننا نؤيّد تلك التربية التى يفتخر الأمريكيّون – على سبيل المثال – بأنهم يربّون أولادَهم عليها ، والتى تقوم على إطلاق طاقات الفرد بغير قيود .. فمثل هذه التربية تؤدّى إلى إشباع حاجات أساسية لدى الفرد المتعلّم ، كما تؤدّى إلى إطلاق طاقاته المُبدعة .. ولكنها تؤدّى – كذلك – إلى (الانفلات) ، أو إلى عجز واضح لديه عن كبح جِماح نفسه ، مما يجعله – فى النهاية – مصدر خطَر على نفسه وعلى المُحيطين به جميعا .. على نحو ما نرى حياة الأمريكيين قد آلت إليه ، وخاصّة مع بدايات الألفية الثالثة .

وإذا نحن قرأنا تاريخ الأمم السابقة ، لوجدنا نهاية كلّ منها تبدأ مع هذا .. الانفلات .

وآخِرُ دعوانا أن الحمدُ لِلّه ربّ العالَمين ،،،